مفهوم الترجمة الأدبية (بين الحرفية والحرية)

د. جاويد أحمد بال*

الملخص

الترجمة تمد جسورا بين الأمم للتبادل الثقافي والتفاعل الحضاري، والتبادل يحدث خلال ثلاثة مظاهر: التبادل بين اللغة المنقولة واللغة المنقول إليها، والتبادل بين المترجم والمؤلف، والتبادل بين الثقافتين، والترجمة الأدبية تأتي كإشكالية استثنائية في إطار الترجمة العامة، هي أصعب أنواع الترجمة لأنها تجعل المترجم حائراً في أمر الإخلاص إلى الكاتب الأصلي والإنصاف للمتلقي الجديد، وفي أمر الالتزام بالأمانة والحرفية وفي استباحته الحرية المطلقة وخرق الحرفية، لأن الاعتماد المفرط على التذوق والروح الإبداعية يمس أحيانا جوهر النص الأصلي فيخرجه في صورة مشوّهة لثقافته أو رسالته، هذا المقال محاولة في مراجعة القضية لأجل الوصول إلى الصيغة المعتدلة المقبولة لمفهوم الترجمة الأدبية.

نص المقال

الترجمة عملية نقل النص المكتوب أو الكلام المشفوه من لغة إلى أخرى، أو "الترجمة هي إعادة كتابة موضوع معين بلغة غير اللغة التي كتب بها أصلا"[1]

يقول الدكتور صفاء خلوصي عن مفهوم الترجمة:

"الترجمة فن جميل يعني بنقل ألفاظ ومعان وأساليب من لغة إلى أخرى بحيث أن المتكلم باللغة المترجم إليها يتبين النصوص بوضوح ويشعر بها بقوة كما يتبينها ويشعر بها المتكلم باللغة الأصلية."[3]

---

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، الكلية الحكومية، بلوامة كشمير

[1] مجدي وهبه، وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٩٣

[3] صفاء خلوصي: فن الترجمة في ضوء الدراسات المقارنة، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م، ص ١٤

يــركّز المتــرجم في الترجمة إما على اللفظ فتكون ترجمته حرفية وإما على المعنى فتكون ترجمته حرة، ويذكر أحياناً نوع ثالث هو المحاكاة وهي التـــي تنطوي على درجة كبيــرة من التصرف، أما التسميات الأخرى لأنواع التــرجمة فيمكن تصنيفها في هذه الأنواع الثلاثة. فالتــرجمة الأمينة والتــرجمة المباشرة أقرب إلى التــرجمة الحرفية كما أن التــرجمة التأويلية والتــرجمة غيــر المباشرة أقرب إلى التــرجمة الحرة، والأقلمة والاستلهام وإعادة الصياغة أقرب إلى المحاكاة.

وجدت منذ قديم الزمان مقاربات تدعم الترجمة الحرفية باعتبارها تعكس بعدا أخلاقيا تجاه النص المصـــدر ولغته وثقافته واحتراما للآخر ومنهم بـارمـان Antoine Berman وشـلايرماخر Schleiermacherوقام الآخرون بتقديم وجهة النظر المعاكســة وهي الدعوة إلى الترجمة تستغل الحرية لجلب القوة والسلاسة فيها، تبعاً لذلك، قسم مترجم الكتاب المقدس يوجين نائيدا Ugene Nida، أنواع التعادل إلى التعادل الحرفي Formal Equivalence (وهو أقرب تماثل ممكن بين النص المصـدر والنص الهدف من حيث الشــكل والمضـمون) والتعادل الدينامـــي Dynamic Equivalence (وهو مبدأ التعادل بين تأثير النص الهدف في قرائه وتأثير النص المصدر في قرائه)[1]، وأعطى بذلك خياراً للمتـرجم أن يختار من بينهما وفق هدفه المنشود، ولكن هذا التقسيم تقوم على فرضية التأثيــر للنص في متلقيه، وقياس ذلك من الصعب، وجدير بالذكر أننا بصدد الكلام عن الترجمة الأدبية التي تعني بنقل الصــنوف الأدبية مثل الشــعر والنثر والتي تختلف بشكل جذري من الترجمة المتخصصة في مجال الاقتصاد والعلوم والسياسة وغيرهـا، ومفهوم التعـادل في الترجمة الأدبيـة لا يثبت على تعريف واحـد أو على مبدأ واحد لأن الإلهام والإبداع يلعبان دورا فيها، أما في المتخصـــصـــة فالتعادل يكون فيها محددا أكثر الأحيـان ويعلمـه من يكون لـديـه التخصـــص في المجـال أو أن يكون عـالمـا

[1] باسل حاتم وإيان ميسون: الخطاب والمترجم (ترجمة عمر فايز عطاري)، ص ١٠، وينظر أيضــــاً: Jeremy Munday (Editor): The Routledge Companion to Translation Studies, London, Routledge, 2009 A.D.، ص ١٨٤ و١٧٣

بمصطلحات، والتــرجمة الأدبية تكون شبه علم وشبه فن، وقد يبدأ المتــرجم مهنته معتمداً على معلوماته وخبــراته ومهارته باللغتين المنقولة منها والمنقولة إليها، ثم يشرع في فهم الكائن الأدبي وتذوقه، ثم صياغته صياغة جديدة، وخلال هذه العملية لا غنى له من الملكات المستلزمة للإبداع العلمي والأدبي، فالمتـرجم يشبه الممثل والمغـني، لأن أمام المتـرجم نصاً أدبياً لأديب آخر، كما أن أمام الممثل دور معين للأداء وأمام المغـني أبيات معدة للغناء، ولكن نجاح كل هؤلاء يعتمد على بــــراعتهم الفنية في عرض بضائعهم، فالمتـرجم يحاكي النص بفنه ومهارته، ويحاول أن يعبـر عن تجربته الملتزمة بالنص، ولكن رغم التزامه بالأصل، يتدخل انطباعه الشخصي في هذه العملية. وذلك هو السبب أن التــرجمة الأدبية لنص واحد تختلف باختلاف الأشــخاص، رغم أن المترجم مقيد بالنص المنتوج، لا بد له من أن يمر بالتجربة الداخلية. كما لا بد له من أن يكون ملهما، يقول محمد عناني:

> "والإلهام في الترجمة ضـرورية في نقل روائع الآدب الأجنبية وآياتها الخالدة، فبدونه تغدو ميتة لا روح فيها ولا حياة والفرق بين الترجمة الملهمة والترجمة الاعتيادية مثل كالفرق بين الشعر والنظم"[1]

ومعنى ذلك أن الأديب المترجم لا يســتطيع أن يقوم بعملية الترجمة التي تكون تعبيرا عن تجربته الذاتية إلا إذا أعطى الحرية المطلوبة لذلك، والحرية تثير كثيرا من الإشـكاليات التي تتعلق بقضــايا مختلفة مثل الأمانة والوفاء للنص الأصـل وللثقافة الأصلية والهوية، وقد اعترف الدكتور صفاء خلوصي نفسه بعد هذا الطرح السابق عن الترجمة الملهمة قائلا:

> "ولا ننكر أن الترجمة الملهمة – على طريقة حنين بن إسـحاق – قد تفقد بعض ألفاظ الأصل ولكنها ترجمة لا يمل منها القارئ بل يتوق إلى معاودتها مرة بعد أخرى بينما الترجمة الاعتيادية – على طريقة ابن

---

[1] صفاء خلوصي: فن الترجمة في ضوء الدراسات المقارنة ص ١٩

البطريق – لا تدعوك إلى مطالعتها إلا لغرض واحد هو مطابقتها مع الأصل لتتعلم منها بعض المفردات والتعابير الاصطلاحية"[1]

من المعلوم أن المترجم يواجه هنا الصراع حول الشكل والمضمون، وإعطاء الأولوية لأحدهما على الآخر، وهذا الأمر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية الترجمة الحرفية مقابل الترجمة الحرة، فشكل النص المصدر يمثل صفات اللغة المصدر ولكنه يختلف اختلافاً كبيراً مع طبيعة اللغة الهدف لدرجة أن ترجمة الشكل ستؤدي حتماً إلى جعل رسالة أو معنى النص في غاية الغموض؟

فالقضية ليست بهذه البساطة كما أوضحه هذا الناقد، وقد ظهرت مسائل جديدة تحت تأثير الحداثة وما بعد الحداثة، وأدخلت المفاهيم الحديثة في مفهوم الترجمة ودراساتها، واهتم المنظرون والباحثون بالمكون الثقافي للنصوص، وأوصلهم اختلاف القراءات لنص واحد إلى إنكار أي معنى مستقل للنص، فأصبح البحث عن المعنى في النص عبثا عند بعضهم، وبدأت الثقافات تخشى من الطمس والاندثار في فترة ما بعد الاستعمار، وإثر هذه المخاوف حاول ماتسورا رئيس اليونيسكو السابق أن يحسم هذا الأمر قائلا "المترجم كائن لا تاريخي بإمكانه أن يقف في منتصف المسافة الفاصلة بين ثقافتين دون أن يميل لأحد على حساب الآخر وإنه بمقدوره عند الترجمة أن يعطل قناعاته ورؤيته للعالم وذائقته والتي تؤثر جميعا بالضرورة على خياراته اللغوية بحيث يصبح في النهاية صفحة بيضاء تسطر عليها الثقافتان المنقول منها والمنقول إليها عقد زواجهما السعيد" هكذا ظل البحث عن التعادل المناسب موجودا في دراسات الترجمة. أقر بعض النقاد استحالة نقل الروائع الأدبية مثل الشعر الرفيع وهم يقصدون بذلك استحالة تواجد التعادل الصحيح للبناء الكلي لهذه الروائع أو التعادل لعناصرها الفنية التي تسبب في جمالها وبهائها، ومعظم النقاد يعتقدون أن نقل النص الشعري من لغة إلى أخرى مستحيل بدون الإفلات أو الزيادة في المضمون

---

[1] نفس المصدر ص ٢٠

أو الجمال أو القالب، ويشرح لنا الأستاذ عبد الماجد القاضي ذلك في العبارة الآتية:

"ورغم أن التـــرجمة أســاس للأدب المقارن، فقد أثبتت تجارب التاريخ الأدبي أن ترجمة الروائع الأدبية شبه مستحيل، لخلوها من المصداقية العاطفية وخواتها الوجداني في أغلب الأحيان. وذلك لأن الكاتب أو الشاعر يعيش تجربة نفسية وعاطفية خاصة خلال العملية الإنتاجية، وتنطبع آثارها على لوحة شــعوره، وتختلف درجات هذا الانطباع، وبالتالي تتنوع أساليب تسجيلها والتعبير عنها، وتتفاوت في قوتها ووقعها في النفوس، فكيف يتأتى للمترجم أن يستجلي الدواخل والكوامن التي لها إســهام ملحوظ في القطعات الفنية والشــعرية، فتقصــر ألفاظه وعباراته عن متابعة خطوات العواطف التــي يتضمنها الشعر، وتبقى بمعزل عن متناول التعبير، وعلى هذا تتضح قلة جدوى الترجمة."[١]

السـبب في ذلك هو أن الأدب بصـفة عامة والشـعر بصـفة خاصـة يتكون من العناصر المتعددة التي تنسب إلى شعور الأديب أو إلى تعبيـــره الخاص، مثل العاطفة والخيال والفكرة واللغة والإيقاع الموسيقى وغيـــرها، وهي متلازمة بعضها ببعض، ولا يمكن الفصــل بين هذه العناصــر، ويقتضــي كل منها الآخر لبناء الوحدة المتكاملة للقطعة الأدبية، ولا بد أن تكون فيه كل هذه العناصــر بصــورة متناســبة ليتحلى بالجمال والروعة، "وإذا كان جمال الشعر مرتبطا بأسلوبه إلى هذا الحد فقد صارت تــرجمته إلى غيــر لغته عسيــرة أو مستحيلة فقد ينقل المتــرجم الحقائق العقلية أو الصــورة الخيالية أو العواطف العامة ولكن قوة الشــعر وجماله الناشــئين عن لغته الخاصة وعباراته الممتازة يزولان بأقل تغيير في الأسلوب."[٢]

---

[١] الأســتاذ عبد الماجد القاضــي: في رحاب الأدب واللغة، نئ دلهي، وايز پبلكيشــنز، ط/١، ٢٠١٣م، ص ١٣٥

[٢] أحمد شــائب: أصــول النقد الأدبي، القاهرة، مكتبة النهضــة المصــرية، ط/١٠، ١٩٩٤م، ص ٣٠٦

ويصرح محمد يونس بمزيد من القوة تأييده لاستحالة نقل الشعر بهذا التوضيح:

"فإذا كان هو الغرض نقل المعـنى أو الفكرة فبها ونعمت، أما نقل الإحساس فلا وألف لا، وإلا فبالله كيف ننقل إلى لغة أخرى إحساس شاعرنا العظيم البحتـري ت ٢٨٤هـ -مثلاً-بالعزة واحتقار الدنيا في سـينيته الرائعة جداً التـي يكثـر فيها حروف 'السين' وما بها من صفير يعبر عن تلك العزة وذلك الاحتقار للدنيا في قوله :

صنت نفسي عما يدنس نفسي   وترفعت عن جدا كل حبس
وتماسكت حين زعزعني الدهر   التماساً منه لتعسي ونكسي."[1]

مع ذلك، هناك فرضية شائعة بين علماء اللسانيات، وتقوم عليها إمكانية تبادل الآراء بين البشـر، وهي فرضـية وحدة التجربة الإنسـانية والفكر الإنسـاني وأشـكال المعرفة وأن هناك عناصر عالمية مشتـركة بين الثقافات كما أن هناك عناصر عالمية مشتـركة بين اللغات[2]، وكل هذه الأمور تدل على أن التعبيـر عن التجارب الأدبية في اللغات المختلفة تتجانس بعضها ببعض، ويمكن تعبيـرها إلى حد كبيـر في كل من هذه اللغات ما دامت مستواها سوياً، وقد حاول صفاء خلوصي أن يصف لنا العلاقة بين هذه المناهج في الترجمة:

"إذا أردت أن تتـرجم نماذج شعرية بلغة النثـر الإيقاعي فيفضل قراءة شيء من الشعر الجيد قبل التـرجمة لغرض جعل القريحة مفتحة لهذا الغرض، أما تـرجمة القطعة شعراً إلى لغة ثانية فتحتاج، كما لا يخفى، إلى موهبة خاصة وقد تعمد بعض من قام بتـرجمة الشعر نثـراً إلى لغة أخرى أن يمنح التـرجمة لوناً من الأسـلوب

---

[1] البحث بعنوان "تـرجمة الشعر وأحاسيس الشعراء" المطبوعة في "أبحاث المؤتمر الدولي: التـرجمة ودورها في تفاعل الحضـارات". (تحت رعاية محمد سـيد الطنطاوي ورئاسـة أحمد عمر هاشم)، ٢٥ يونيو ١٩٩٨م

[2] عهد شوكت سبول: التـرجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق، رسالة جامعية لنيل درجة الماجستيـر إلى دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى، الجامعة الأمريكية في بيـروت، شباط ٢٠٠٥م، ص ٣٦

الشعري، بل وأحياناً وزناً نثرياً خاصاً أقرب ما يكون إلى نمط الشعر غير المقفى، وقد يجمع المترجم بين الطريقتين أي بين النثر الاعتيادي والشعر المنثور، فيكون النتاج أقل تآلفا مما لو كان كله نثراً اعتيادياً، والتوصل إلى سلاسة التعبير في ترجمة الشعر، ولاسيما غنائي أيسر منه في النثر، إذ أن الشعر الغنائي يجيز حرية في التصرف أكبر وأعظم من أي صنف من صنوف الشعر الأخرى، وكلما ازدادت الحرية في الترجمة اقتربت المترجمات من سلاسة القطع الموضوعية. وإذا كانت الحرية معقولة فالنتائج التي نجني منها تكون طيبة أما إذا زادت، كان النتاج هو ما يعرف بالترجمة التفسيرية، ثم إذا ما تعدت الحدود كلها غدت مجرد تقليد، فالمترجم الاعتيادي لينوء تحت عبء النص الشعري، أما المترجم العبقري فيرتفع فوقه والشعر المترجم يكون أحسن من الأصل أو أسوأ منه ويندر أن يكون بمستواه تماما."[1]

فالنص المترجم تكون له ميزاته اللغوية والفنية مما يختلف من ميزات النص المصدر، والدلالة تختلف من حيث القوة والضعف في عمل المترجم، فالتراجم تكون نصوصا شبه مستقلة حيث تتقيد بالنصوص الأخرى في جهة وتتحرر منها في جهة أخرى، إذ أن الترجمة الأدبية نص صيغ بلغة الهدف وفقاً لمعطيات نص آخر صيغ بلغة المصدر، وهو لهذا السبب مقيد بمعطيات أصله الأجنبي نصاً ومعنى وأسلوباً. ولكنه في نفس الوقت إحالة معاني هذا النص المصدر إلى تجربة ثانية من قبل أديب آخر ثم تعبير عنها بشكل فني منتظم، فالدوافع عند منتج النص المصدر، ودوافع المترجم ربما لا تتوافق، وكذلك الحال مع السياق والظروف الاجتماعية التي أبدع النص أو الترجمة فيها، فالتعادل الحرفي التام لا يمكن تحقيقه، ولكن هل يترك المترجم هدف التعادل التام – على الأقل نظريا – لا شك أنه إذا تصرف كذلك سيؤدي إلى الفوضى، يقول د. عبد عبود عن التعادل التام:

[1] صفاء خلوصي: فن الترجمة في ضوء الدراسات المقارنة، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م، ص ٢٦-٢٩

"إنه مطلب مثالي أو شـــبه مثالي. إذا أصـــر المرء على تحقيقه يكون كمن يطالب بالحد الأقصى وينشد الكمال، إلا أننا نعرف جميعاً أن الكمال غيـــر ممكن التحقيق، وكذلك التناظر (التعادل) الكامل في التـــرجمة. أما التناظر الممكن فهو التناظر الجزئي أو النسبي، وكلما زادت تلك النسبة كانت الترجمة أفضل، والعكس (أيضا) صحيح ."[1]

ويقول أيضاً:

"فهل نعفي من يتـــرجم قصـــائد شـــعرية إلى اللغة العربية من مشـــقّة تحقيق التناظر بين التـــرجمة والأصل على صعيد الوزن الشعري وموسيقى الشعر والقافية، ونقبل بأن يتـــرجم الشعر الأجنبي نثـــراً؟ إنّ المتـــرجم مطالب في هذه الحالة بأن يحقّق تقارباً نسبياً بين الترجمة والأصل، فلا يستخدم في ترجمة قصيدة أجنبية حرة الأوزان والقوافي شـــكل القصـــيدة العمودية العربية التـــي يلتـــزم فيها الشـــاعر بوحدة الوزن والقافية. وعلى صـــعيد اللغة الشـــعرية ينبغي للمتـــرجم أن يحاول اســـتخدام مفردات وتعابيـــر وتـــراكيب ذات إيحاءات تقتـــرب على قدر المستطاع من إيحاءات المفردات والتراكيب والتعابير اللغوية الأجنبية."[2]

هذه الدعوة إلى التطابق بين النص الأصـــلي والنص المترجم تضـــع حداً لخرق الحرفية وتفترض وجود بعض الثوابت التي يجب على المترجم أن يحتفظ بها لتقليل السمة التحريفية في الترجمة الفنية.

خاتمة

ومهما يكن من الأمر فالنظرية حول إمكانية تـــــراجم أدبية ســـليمة من لغة إلى أخرى تستمر، إلا أن النقاط المختلف عليها معروفة لا تتغير، ولذا قال أحد المنظرين أن الخصومات والعقائد والاتفاقيات حول طبيعة الترجمة الأدبية لم تتغير منذ ألفي

---

[1] عبده عبود: الأدب المقارن-مشـــكلات وآفاق، دمشـــق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م، ص ١٨٩

[2] عبده عبود: الأدب المقارن -مشكلات وآفاق، ص ١٩٣

عام، هذا الجدل وثيق الصلة بقضية أساسية وهي أيهما أفضل: التعادل الملتزم بالحرفية أو الشكل أم الملتزم بالمعنى أو المضمون، والانطباع الذي يسود على الذهن هو أن المترجم كلما استطاع أن يقف منطقة وسطية بين الترجمة الحرفية والترجمة الحرة تكون الترجمة أفضل.